# مرويات الكتابة في التراث العربي
# ( قراءة في حكايات بدء الكتابة وإصلاحها )

محمد سعيد صالح ربيع الغامدي

مدرس ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،
جامعة الملك عبدالعزيز ، السعودية

المجلة العربية للعلوم الإنسانية 99 العدد 24/95

## الملخص

تعتمد الدراسات والبحوث العلمية اليوم بصورة أساسية على المرويات الشائعة في كتب التراث العربي التي يروي بعضها قصة نشأة الكتابة أو قصة إصلاحها ، ويروي بعضها الآخر أطرافاً وجوانب مختلفة منها ؛ وتعرض الورقة هذه المرويات ، بغرض التأمل في بنيتها التي قامت عليها ؛ ومن ثم يتبين مدى ما يمكن الوثوق به والاعتماد عليه من مضامينها مصدراً لتاريخ نشأة الكتابة أو تاريخ إصلاحها . وتنتهي الورقة إلى محاولة بيان سبب اللجوء إلى الحكاية والسرد قديماً ، وسبب الاعتماد على ما حكاه الأقدمون من ذلك حديثاً .

## تمهيد

لعل من نافلة القول التأكيد أن أعظم منجز حدث في تأريخ البشرية كلها هو «الكتابة» . ولا عجب أن يحيط بهذا الحدث ما لا يمكن حصره من التجليات في الحياة ، وأن يكون مصدراً ثرياً لكثير جداً من الأسئلة ، ومنبعاً لسيل من الحكايات والقصص والأخبار والروايات . ولقد أحيطت الكتابة في تراثنا العربي بروايات متعددة الاتجاهات ، مختلفة المناحي ، تحاول كلها أن تسهم في الإجابة عن أسئلة الكتابة ، وترمي إلى إزالة بعض الغموض الذي يكتنف بالضرورة كثيراً من جوانبها . وسنكتفي في هذه الورقة - بغرض وضعها في إطار منهجي واضح - بالإطلالة على ما وُجدَ في التراث من حكايات تروي مفاصل من قصة الكتابة ، وننظر في أهم الاتجاهات التي تدور الحكاية في فلكها ؛ ليمكن من خلال ذلك الوصول إلى بعض ما تخبئه الحكاية مما لم تقله أو تُشرْ إليه صراحة من جهة ، ونتأمل من جهة أخرى آثارها في تصور تأريخ الكتابة وتطورها .

لن تعني هذه الورقة بتتبع تأريخ الكتابة أو ضبط مراحل تطورها ، ولا بحصر الأقوال والروايات التي تناولت زوايا تأريخ فن الكتابة أو الموازنة بينها ؛ لأن غرض الورقة ليس الحديث عن تأريخ الكتابة ولا رسم ملامح مراحل تطورها ، بل غرضها الرئيس ينحصر في محاولة الكشف عن جوانب من العلاقة بين المرويات والتصورات القارة في أذهان الدارسين قديماً وحديثاً عن تأريخ الكتابة ؛ انطلاقاً من فرضية تحاول الدراسة إثباتها ؛ مفادها : أن مجمل التصورات عن التأريخ قد شكّلتها الحكاية على نحو معين ، مثلما أسهمت تلك التصورات في بناء الحكاية على نحو معين أيضاً ، وأن ذلك كله يعود إلى تصورات ثقافية أعم صاغت التأريخ وأنتجت مروياته[1] . ولهذا السبب تحديداً يمكن ضبط حدود هذه الدراسة في أنها قراءة في مرويات الكتابة من منظور نقدي ، وفي كونها تستبطن العلاقة بين مجمل المرويات وموضوعها الذي ترويه . وبهذا تنتفي ضرورة التتبع والحصر والموازنة ، وتحل بدلاً من ذلك أهمية الوقوف عند العينات ذات الدلالة منها ؛ من أجل مقارنة صنيع فريقين من الدارسين ، أحدهما : أخذ

بها مصدراً لقصة الكتابة ، والآخر : أعرض عنها والتمس تأريخ العلم من طرق أخرى ، وبيان ما أفضى إليه عمل كل فريق .

وقد اختير للدراسة من بين سيل الحكايات والأخبار والقصص التراثية مرويات تروي مفصلين من مفاصل تأريخ الكتابة ، هما : نشأتها ، وإصلاحها . ذلك لأن بين هذين المفصلين مَشابهَ أرجو أن تتبين من خلال العرض الآتي ، كما أرجو أيضاً أن تتضح مسوِّغات اختيارهما والجمع بينهما في دراسة واحدة .

وتقتضي طبيعة الدراسة بالصورة المعروضة هنا عدم إدخال النصوص الثابتة أو قطعية الدلالة ، دينية كانت أو غير دينية ، في مجالها ؛ ذلك لأنها تتعامل مع المرويات بوصفها منتجات ثقافية رجراجة يمكن الافتراض ابتداءً أنها قامت منذ الأساس لدعم تصورات ثقافية شائعة معينة ، مثلما صاغتها في الوقت نفسه تلك التصورات نفسها . ولذا وجب التنبيه هنا إلى أن شواهد الورقة (مما أوردته مصادر التراث على أنه من الأحاديث النبوية الشريفة ، أو من آثار بعض الصحابة) هي مما لم تثبته كتب الحديث العلمية المعتبرة ، فهي إذاً من قبيل الروايات التي تتكئ الثقافة في تمريرها على الدين الحنيف ومنزلته في النفوس من أجل دعم تصوراتها الخاصة و كما سيتبين لاحقاً .

### حكاية البدء : (وضع الخط)

من أكثر الأشياء إثارة للفضول سؤال النشأة والبدايات . ولذا أحيطت العلوم المهمة المؤثرة في حياة العرب الثقافية بحكايات وضعها ونشأتها . وأظهر الأمثلة على ذلك حكايات وضع علم النحو على يد أبي الأسود الدؤلي بتوجيه من علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أو على يد علي نفسه ، وهي الحكاياتُ المتداولة المشهورة[2] . أما الكتابة فهي على وجه الخصوص أشد الأشياء إثارة لقلق السؤال وأكثرها إلحاحاً في طلب الإجابة عن كيف وجدت؟ ومن أوجدها؟ إذ هي أشبه شيء بالمعجزات وأقرب إلى السحر ، إن لم تكن السحر نفسه[3] .

تذهب بعضُ الحكايات إلى أن الكتابة توقيفية من عند الله تعالى علمها آدم أبا البشر ، ولا فضل للناس فيها . وهذه رؤية تندرج في المذهب القائل

بالتوقيف في مقابل القول بالاصطلاح والتواضع . ويبدو أن هذا المذهب في منشأ الكتابة والخط ، وإن كان ينسجم مع نظرة للغة في عمومها وليس مقتصراً على الكتابة وحدها ، لا يخلو من أثر الشعور بأن مثل هذه العلوم معجزة لا قدرة للبشر على إيجادها . ويستدل هؤلاء بقول الله تعالى **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾** [4] على القول بالتوقيف في الكتابة ، مثلما يستدلون به أيضاً على توقيفية مفردات معجمها ، وأحياناً على التوقيف في علوم اللغة كافة[5] .

زعمت بعضُ الحكايات أن الكتاب الذي أنزله الله عز وجل على آدم عليه السلام هو كتاب «المعجم» . وراحت هذه الحكايات تثبت المصدر الإلهي للحروف بأسمائها الاصطلاحية وترتيبها وعددها كما عُهدت في العربية بحديث عن رسولنا صلى الله عليه وسلم تُنْسَبُ روايته إلى أبي ذر الغفاري ، لم تثبته كتب الحديث المعتبرة ، هو أن أبا ذر قال : «سألت رسول الله ، فقلت : يا رسول الله ، كل نبي مرسل بمَ يُرسل؟ قال : بكتاب منزل . قلت : يا رسول الله ، أي كتاب أُنزل على آدم؟ قال : أ ب ت ث ج . . . إلى آخره . قلت : يا رسول الله كم حرفاً؟ قال : تسعة وعشرون . قلت يا رسول الله عددت ثمانية وعشرين . فغضب رسول الله حتى احمرت عيناه ، ثم قال : يا أبا ذر ، والذي بعثني بالحق نبياً ما أنزل الله تعالى على آدم إلا تسعة وعشرين حرفاً . قلت : يا رسول الله ، فيها ألف ولام؟ فقال عليه السلام : لام ألف حرف واحد أنزله على آدم في صحيفة واحدة ومعه سبعون ألف مَلَك ، من خالف لام ألف فقد كفر بما أُنزل على آدمَ ، ومنْ لم يعد لام ألف فهو بريء مني وأنا بريء منه ، ومن لا يؤمن بالحروف وهي تسعة وعشرون حرفاً لا يخرج من النار أبداً»[6] . وذكر السيوطي حديثاً قال : إنه «أخرجه ابن أشتة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أول كتاب أنزله الله من السماء أبو جاد»[7] . وسيأتي الحديث عن أبجد وأبي جاد فيما يلي .

ونسبت مرويات أُخَرُ هذا الوضعَ إلى آدم نفسه ، وربما أشعر ذلك بأنه بوحي من الله أيضاً . من ذلك ما رُوي من «أنَّ أوَّلَ مَنْ كتب الكتابَ العربي

والسرياني والكتبَ كلها آدمُ عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها في طين وطبخه . فلما أصاب الأرضَ الغرقُ وجد كلُّ قومٍ كتاباً فكتبوه ، فأصابَ إسماعيل عليه السلام الكتابَ العربي»[8] .

وربطت بعضُ المصادر بين مضامين هذه الحكايات للدلالة على أن الله عَلَّمَ آدمَ كلَّ شيء بما في ذلك الكتابة . من ذلك ما نقله صاحبُ أبجد العلوم ، وهو أن : «آدم عليه الصلاة والسلام كان عالماً بجميع اللغات ؛ لقوله سبحانه وتعالى : ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ . قال الإمام الرازي : المراد أسماء كل ما خلق الله سبحانه وتعالى من أجناس المخلوقات بجميع اللغات التي يتكلم بها ولده اليوم ، وعلم أيضاً معانيها . وأنزل عليه كتاباً ، وهو كما ورد في حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله ، أي كتاب أنزل على آدم؟ قال : كتاب المعجم . قلت : أي كتاب المعجم؟ قال : أ ب ت ث ج . قلت : يا رسول الله كم حرفاً؟ قال : تسعة وعشرون حرفاً . . الحديث . وذكروا أنه عشر صحف فيها سور مقطعة الحروف ، وفيها الفرائض والوعد والوعيد وأخبار الدنيا والآخرة ، وقد بين أهل كل زمان وصورهم وسيرهم مع أنبيائهم وملوكهم وما يحدث في الأرض من الفتن والملاحم»[9] .

وتنسب بعض المرويات الأولية في الكتابة بالعربية إلى إسماعيل عليه السلام ، لا إلى آدم . قيل : وذلك أصحُّ من رواية أول من تكلم بالعربية إسماعيل[10] . كما تورد مرويات مبثوثة في التراث شذرات متفرقةً عن أول مَنْ كتب عبارة معينة . لعل من أشيعها ما يثبت الأولية لمن كتبَ (بسم الله الرحمن الرحيم) . وغالب ذلك إنما يُنسب إلى أحد الأنبياء عليهم السلام[11] . يذكر بعضُهم أن أوَّلَ من كتب البسملة هو سليمان عليه السلام ، ويروون إسناد هذا القول ككثير غيره في الغالب إلى ابن عباس[12] .

ويخرِّج القلقشندي ما ظاهره تعارض نزول ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ على سليمان عليه السلام وعلى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه ربما نزلت الآية على نبي ثم نزلت على نبي آخر ، كما قيل في قوله تعالى ﴿حم * عسق *

كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك﴾[13] : إنه ما بعث الله تعالى نبياً إلا وأنزل عليه (حم عسق) ، وقد أنزلت (بسم الله الرحمن الرحيم) على سليمان عليه السلام ثم أنزلت على النبي ، وربما أنزلت الآية الواحدة على النبي مرتين كما في الفاتحة فإنها نزلت مرة بمكة ومرة بالمدينة على أحد الأقوال . وهذا يفسر عنده قول الداني : إن حروف العربية نزلت على هود عليه السلام ، مع أن المشهور أنها نزلت على آدم عليه السلام[14] .

أما عيسى بن مريم عليه السلام فإن الأخبار تنسب إليه معرفتَه أسرارَ حروف البسملة المعجزة ، وكشف ما تخفيه الألفاظ أو تحيل عليه من العلم . روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن عيسى عليه السلام لما أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه المعلم ، فقال له المعلم : اكتب «بسم الله» فقال له عيسى عليه السلام : ما بسم الله؟ قال المعلم : لا أدري . فقال له : باء بهاء الله وسين سناؤه وميم ملكه والله إله الآلهة والرحمن رحمان الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة»[15] . وسترد بعض الحكايات عن عيسى عليه السلام تكشف معرفة شبيهة بهذه .

على أن أخباراً أخرى ، يبدو أنها إجمالاً صادرةٌ عن المذهب الذي يعتمد القولَ بالاصطلاح لا بالتوقيف ، تنسب أولية الكتابة لآخرين غير الأنبياء والرسل . جاء في اللسان : «قال المدايني : بلغنا أن أول من كتب بالعربية مرامر ابن مروة ، من أهل الأنبار ، ويقال من أهل الحيرة . قال : وقال سمرة بن جندب : نظرت في كتاب العربية فإذا هو قد مر بالأنبار قبل أن يمر بالحيرة . ويقال : إنه سئل المهاجرون : من أين تعلمتم الخط؟ فقالوا : من الحيرة . وسئل أهل الحيرة : من أين تعلمتم الخط؟ فقالوا : من الأنبار»[16] . وقيل : «إن نفيساً ونصراً وتيماً ودومة بني إسرائيل وضعوا كتاباً واحداً وجعلوه سطراً واحداً موصول الحروف كلها غير متفرق ، ثم فرقه نبت وهميسع وقيذار ، وفرقوا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر . وعن هشام بن محمد عن أبيه قال : أخبرني قوم من علماء مصر أن أول من كتب الكتاب رجل من بني النضر بن كنانة

فكتبته العرب حنيئذ . . . وفي السيرة لابن هشام أن أول من كتب الخط العربي حمير بن سبأ عَلَمَهُ في المنام ، قال : وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمسند ، سمي بذلك لأنهم كانوا يسندونه إلى هود عليه السلام»[17] . وستسند بعض الأخبار التي تأخذ هذه الوجهة إلى ابن عباس أيضاً ؛ إذ روي أن ابن عباس قال : «أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان ، وهي قبيلة سكنوا الأنبار . وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة . وهم مرار بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ، ويقال : مروة وجدلة . فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام . وسئل أهل الحيرة : ممن أخذتم العربي؟ فقالوا : من أهل الأنبار»[18] . وقال السيوطي : «أخرج الحافظ أبو طاهر السلفي في الطيوريات بسنده عن الشعبي قال : أول العرب الذي كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس ، تعلم من أهل الحيرة ، وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار»[19] .

## المصطلح في الحكاية

اشتملت الحكايات الواردة فيما مضى ، على كثير من مصطلحات الكتابة وأسماء الحروف كما تبين ، مع أنها تحكي النشأة والأولية وهي مرحلة يفترض أنها لم تستقر فيها المصطلحات بعد ، ولم تتبلور بصورة واضحة . غير أن ما يلفت النظر بصورة تجدر الإشارة إليها هو ظهور حكايات تجسد بصورة عجائبية أسماءَ الحروف ، وكذا الألفاظ التي جمعت فيها (أبجد هوز . . . إلخ) والتي يبدو أن الغرض الظاهر منها هو ترتيب الحروف وتسهيل حفظها . فكأنّ هذه الألفاظ يُحتاج إلى حلها بحكايات وأخبار عنها ، تجعلها تارةً أسماء لأناس اخترعوا الكتابة عند من يعتنقون مذهب الاصطلاح ، فيمكن بناء على مذهبهم أن تكون هي أسماء مخترعي الكتابة المعجزين . وتجعلها تارة أخرى أسماء لأشياء تتعلق بالخلق والقدرة الإلهية المعجزة عند من يعتنقون مذهب التوقيف .

استُعملت الكلمات التي تجمع حروف الهجاء (أبجد هوز . . إلخ) في بعض الحكايات والأخبار دوالَّ لمدلولات غيبية ومعانٍ خفيَّة ، أو أسماءً

لشخصيات فذة وموهوبة ، أو أُسقطت على مخلوقات بدأ بها خلق الكون الدال على قدرة الخالق العظيم .

مما روي في المصادر من أخبار معرفة عيسى بن مريم عليه السلام الخارقة ما رواه «محمد الباقر قال : لما جاء عيسى إلى البهنسا وهو مع أمه ابن شهرين كأنه ابن سُنتين ، فلما كمل تسعة أشهر أخذته والدته وجاءت به إلى الكتاب بأرض البهنسا ، فأقعده المؤدِّبُ بين يديه وقال له : قل : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال عيسى : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال له المؤدب : قل أبجد . فرفع عيسى طرفه وقال : أتدري ما أبجد؟ فعلاهُ المؤدب بالدرة ليضربه ، فقال له : يا مؤدب ، لا تضربني . إن كنت لا تدري فاسألني حتى أعرفك . فقال : قل لي . فقال : انزل من على مرتبتك . فنزل من على مرتبته وجلس عيسى مكانه ، ثم قال : الألف آلاء الله ، والباء بهاء الله ، والجيم جلال الله ، والدال دين الله والهاء هوية جهنم ، وهي الهاوية ، والواو ويل لأهلها ، والزاي زفير جهنم ، والحاء حطت الخطايا عن المستغفرين ، والكاف كلام الله لا مبدل لكلماته ، والصاد صاع بصاع ، والقاف قرب حيات جهنم من العاصين . فقال لها المؤدب : خذي بيد ابنك ، فقد علمه الله تعالى فلا حاجة له بالمؤدِّب»[20] . وثمة في بعض المصادر اختلاف في ألفاظ الرواية[21] .

وتربط بعض المرويات «أبجد» وأخواتها ببدء الخلق ، وتجعل الستةَ الأولَ منها ، وهي التي وردت في الخبر السابق عن عيسى عليه السلام ، أسماءً للأيام الستة التي خلق الله فيهن السموات والأرضين . والملاحظ أن الأخبار التي تطلق هذه الأسماءَ على بدء المخلوقات الكونية تستصحب في الغالب في السياق نفسه الإخبارَ عن أنَّ أولَ شيء خلقه الله هو (القلم) أداة الكتابة الأولى[22] . قال الطبري : «إن الله خلقَ القلَمَ ، فكتب به ما هو خالقٌ وما هو كائنٌ من خلقه . ثم إنَّ ذلك الكتابَ سَبَّحَ اللهَ ومجَّدَهُ ألفَ عام قبلَ أن يخلق شيئاً من الخلق . فلما أراد جلَّ جلاله خلقَ السموات والأرض خَلق فيما ذكر أياماً ستة ، فسمّى كل يوم منهن باسم غير الذي سمّى به الآخر . وقيل إنَّ اسم أحد تلك الأيام

الستة أبجد ، واسم الآخر منهن هوز ، واسم الثالث منهن حطي ، واسم الرابع منهن كلمن ، واسم الخامس منهن سعفص ، واسم السادس منهن قرشت»[23] . ويشترك مع هذه الرواية في بعض الوجوه روايةٌ أخرى توائم بين عدد الحروف في العربية والخلق والكون ، هي قول بعضهم : «وجعلت ثمانية وعشرين حرفاً على عدد منازل القمر الثمانية والعشرين . قالوا : ولما كانت المنازل القمرية يظهر منها فوق الأرض أربع عشرة منزلة ، ويغيب تحت الأرض أربع عشرة ، كانت هذه الحروف ما يظهر منها مع لام التعريف أربعة عشر بعدد المنازل الظاهرة . . . وما يندغم منها أربعة عشر حرفاً أيضاً بعدد المنازل الغائبة»[24] .

وأخرى تُسْنَدُ إلى ابن عباس رضي الله عنه القولَ بأن «أبجد» - ويقال له في بعضها : «أبو جَاد» - وسائرَ الكلمات ما هي إلا رموز تحكي قصة آدم وبدء الخلق . تورد بعضُها سلسلةً طويلةً من الرواة تنتهي إلى أنَّ ابن عباس قال : «إنَّ لكلِّ شيء سبباً ، وليس كلُّ أحد يفطن له ولا سمع به ، وإن لأبي جاد لحديثاً عجباً . أمَّا أبو جاد فأبى آدم الطاعّة وجد في أكل الشجرة ، وأما هو فهوى من السماء إلى الأرض ، وأما حطي فحطت عنه خطاياه ، وأما كلمن فأكل من الشجرة ومُنَّ عليه بالتوبة ، وأما سعفص فعصى آدمُ ربَّهُ فأُخرج من النعيم إلى النكد ، وأما قريشات فأقر بالذنب وسلم من العقوبة»[25] .

أما من لم يعلّق بدءَ الكتابة بالمصدر الإلهي العلوي فقد جعل هذه الكلمات لأشخاص أفذاذ موهوبين ، هم في الغالب من يعود إليهم الفضل في اختراع هذا السحْر المسمى بالكتابة . أورد ابن النديم في أول من وضع الخط العربي عن هشام الكلبي أنه قال : «أول من صنع ذلك قومٌ من العرب العاربة نزلوا في عدنان بن أد ، وأسماؤهم : أبو جاد ، هواز ، حطي ، كلمون ، سعفص قريشات . . . وضعوا الكتاب على أسمائهم ، ثم وجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم وهي : الثاء والخاء والذال والظاء والشين والغين فسموها : الروادف . قال : وهؤلاء ملوك مدين وكان مهلكهم يوم الظلة في زمن شعيب النبي عليه السلام»[26] .

وجاء في بعض المصادر ذكرٌ أن هذه الأسماء هي أسماء ملوك دون إشارة إلى علاقة واضحة بالكتابة . منها أنه «كان أبو جاد وهواز وحطي وكلمون وسعفص وقريشات بني جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم ملوكاً . وكان أبو جاد ملك مكة وما والاها من تهامة ، وكان هواز وحطي ملكي وج وهو الطائف ، وكان سعفص وقريشات ملكي مدين . ثم خلفهم كلمون وكان عذاب يوم الظلة في ملكه فقالت : خالفة بنت كلمون ، وفي رواية أخت كلمون :

**كلمون هد ركني هلكه وسط المحلة**

**سيد القوم أتاه الحتف نارا وسط ظله**

**كويت نارا فأضحت دارهم كالمضمحلة»**[27] .

ويورد المقدسي رواية ، تعضدها الأشعارُ أيضاً ، في أن الأربعة الأول أسماء ملوك مدين ، وهم من ولد محصن بن جندل بن مدين بن إبراهيم . وفي هلاكهم يقول الشاعر :

**ملوك بني حطي وسعفص في الندى وهوز سادات الثنية والحجر**[28]

كما تستند روايةٌ أخرى إلى الأشعار في إثبات وضع الخط لغير الملوك ، وتوفق بين ما ترويه وما يصل «أبجد» وأخواتها بخبر الوضع . قال ابن منظور : «قال شرقي بن القطامي : إن أول من وضع خطنا هذا رجال من طيئ ، منهم مرامر بن مرة . قال الشاعر :

**تعلمت أبا جاد وآل مرامر وسودت أثوابي ولست بكاتبِ**

قال : وإنما قال : وآل مرامر ، لأنه كان قد سمّى كلُّ واحدٍ من أولاده بكلمة من أبجد ، وهي ثمانية»[29] .

وتتضحُ في عموم الحكايات والأخبار التي تروي قصة الكتابة ملامحُ الدهشة والانبهار بهذه المعجزة . ومن الطبيعي أن تنطبع مسحة العجب والاستغراب من تفرد الاختراع على حكاية وجوده ، ولذا صارت قصة الكتابة

العجيبة الغريبة هنا مزيجاً من العجائب والغرائب . ومن الطبيعي أيضاً أن تكون هذه صورة ما يُنْقَلُ خبره بطريق السرد والحكايات ، فيكون السرد وتكون الحكايات مصدرَ الأخذ الوحيد فيه .

كان يمكن لوجود الكتابة ألا يكون ذا ملامح أسطورية غرائبية في الثقافة ، لو أن الثقافة كانت قد اعترفت مسبقاً بحقيقة أن الكتابة لا يمكن التوصل إلى حقيقة نشأتها ووجودها كاملة بصورة واضحة وقطعية ، ولا يمكن أن تكون من إنجاز شخص ما بعينه وفي وقت ما معلوم . غير أنها في هذه الحال لن تتناسب مع السرد ، ولن يتناسب السرد معها ؛ إذ يوجد السرد الغرائبي الأسطوري في حياة الناس أصلاً لكي يجيب عن أسئلة النشأة والوجود التي يعجزون عن الإجابة عنها . وهنا يتعمد السرد إخفاء حقيقة عدم القدرة على الإجابة من أجل أن يقدم هو الإجابة في شكل «حكاية» . كانت الحكاية الأسطورية المفسرة لنشأة الظواهر ووجودها «تقوم بوظيفة مماثلة لتلك التي أصبح يقوم بها العلم بعد ذلك . وكانت هي الوسيلة الطبيعية لتفسير الظواهر في العصر السابق على ظهور العلم»[30] . ويتقبل الناس برضا إجابات السرد عن الأسئلة الصعبة ؛ لأنهم في حاجة ماسّة إلى الوصول إليها .

تتجلى في حكاية الكتابة أبرز الملامح الأسطورية التي تميز «الأسطورة» مفهومياً عن غيرها ، وهي أنها حكاية بدء ونشأة ، وفي الوقت نفسه تفسير للُغز البدء المحيِّر[31] . «إنها تفسير لشيء ما في الطبيعة . مثلاً : كيف انبثق إلى الوجود كل شيء وأي شيء في هذا الكون؟»[32] . وغايتها «صون بقاء الحياة والمؤسسات الإنسانية في عالم لا يتحكم به الإنسان ، بل لا يكاد يفهم منه شيئاً»[33] . وتتوسل الأسطورة عادة بالخرافة . وللخرافة التي توسلت بها أسطورة الكتابة مظاهر من أهمها : أن أبطالها غالباً نبلاء أو ينتمون إلى أصل نبيل ، ويفعلون الأفعال النبيلة أو العظيمة الخارقة[34] . كما أنها تتوسل عادة بحيل الاتكاء على الأسس الثقافية المستقرة في أعماق الثقافة بحيث يكتسب ما تحاول تمريره الصلابة والتصديق ، وتظهر بمظهر التأريخ لا السرد . من ذلك الاتكاء على النص الديني المقدس وعلى النص الشعري المحترم بوصفهما عاملين مؤثرين في

عقول متلقي الحكاية . أما النص الديني فيكون الاتكاء عليه إما بتأويل نص ما قائم تأويلاً يسيرُ مع منحى السرد ، كتأويل قوله تعالى : ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ ، وإما بارتجال نص غير موجود في الأصول العلمية القائمة كحديث أبي ذر ، وأحاديث عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء والرسل ، والآثار التي تروى عن ابن عباس المعروف بأنه حبر الأمة وعُلّم التأويل . وكذا بالاتكاء على المعهود في الثقافة الدينية نحو تصور إمكان إنزال السورة الواحدة أكثر من مرة ، وإنزالها على أكثر من نبي ، أو تصور إمكان حصول الأمر الخارق تحقيقاً لرؤيا في المنام ، أو قبول أن يكون لألفاظ النص الديني معان غيبية باطنة غير المعاني الظاهرة المتداولة وإمكان إطلاع الأنبياء عليها . وأما الاتكاء على الشعر فمبني على مفعول الشعر السحري في الثقافة السائدة وعلى المعهود من تأثيره ، وأنه يكفي في الكلام ليكون حقاً وصواباً أن يقال فيه : «قال الشاعر»[35] .

يستطيع السرد حين يحتال بحيل ثقافية راسخة كالتي أشير إليها آنفاً أن يمرر ما يريد ، وأن يضلل متلقيه ، فلا يتنبه المتلقي إلى ما في المضامين الحكائية من مفارقات أو تناقضات . أو لعل الحيل الثقافية تستند أساساً إلى أن الثقافة تأبى أن يُظهر المتلقي ما يريد في أعماقه أن يعترض عليه أو يسائله . ولذا استطاع السرد في مرويات الكتابة أن يخفي على سبيل المثال بدهية أن حكاية ابتداء العلم من العدم تتعارض تماماً مع تضمنها مصطلحات العلم التي تكون فيه بعد الوجود . كما استطاع أن يخفي صوراً من التحيز الثقافي الذي لا يتبين إلا لمن يقرأ الحكاية غير منساق إلى التسليم بمضامينها ، كجعلها الأنبياء السابقين يتكلمون العربية ويكتبون بالخط العربي[36] .

المفارقة الجديرة بالإشارة إليها هنا أن سرد قصة الكتابة كان في أصله المتناقل ، ثم في صورته التي انتهى إليها شفهياً لا كتابياً . إذ «ينتمي السرد العربي القديم إلى السرود الشفاهية . فقد نشأ في ظل سيادة مطلقة للمشافهة ، ولم يقم التدوين الذي عُرف في وقت لاحق لظهور المرويات السردية إلا بتثبيت آخر صورة بلغها المروي»[37] . فالكتابة هنا لا تعدو أن تكون موضوعاً واحداً فقط من بين الموضوعات الكثيرة التي كانت تروى حولها الأخبار ، ثم أتى التدوين

الكتابي ليثبت المروي على الحال الذي كان عليها شفاهياً قبل تدوينه . وسيتضح في الصفحات القادمة أن بعض قضايا الكتابة المتأخرة لم يُلجأ في الحسم فيها إلى شواهد من جنس ما تثبته أو تنفيه ، وهو الكتابة ، بل بقي المصدر الشفاهي وحيداً في إثبات ما يفترض وجود شواهد منه أو عدمها عليه .

ومفارقة أخرى هي أن ما يتمظهر من حكايات التراث بالاقتراب من منطق المعقول من حيث نسبة اختراع الكتابة إلى البشر وإلى مصادر دنيوية لا علوية ، يلاحظ عليه أنه يعلقها بـ «واضع فذ» ، وكذا يسبغ على الواضع اختلافاً وتميّزاً عن عامة الناس . ولهذا ظهر الواضع مرات ممثلاً بهيبة المُلك ، ومرات بتسميته باسمه المميز له بوصفه واضعاً . وهذا يدل من جهة على أن ما يبدو أنه أقرب إلى المعقول يتكئ على مظاهر الخرافة المتمثلة في أبطالها النبلاء كما أشير إلى ذلك آنفاً ، ومن جهة أخرى يدل على عمق التشابه بين النوعين المختلفين في الظاهر ، وهو ما سيشار إليه لاحقاً .

للكتابة بطبيعة الحال قصة . لكنها ليست قصة سردية فيها ما في القصص من الشخصيات والزمان والمكان والأحداث ما تعيّنُ القصةُ حدودَهُ أو صورته حقيقةً أو خيالاً . إنما هي قصة من نوع ما يوجد في تأريخ الإنسانية من قصص التطور المعرفي الذي صاحب هذا التأريخ . وهو نوع لا يحكى بدؤه ، ولا يحدد زمان البدء ولا مكانه ولا شخصياته ، ولكن يتلمس منه علامات على طريق تطوره ونموه وتأثر المجتمعات بعضها ببعض فيه[38] . ومن يعدل في رسم صورة العلم عن هذا إلى الحكاية ستكون الخرافة بلا شك هي العنصر المهيمن في المرسوم . وسيتضح فيما يلي مصداق هيمنة الخرافة على حكايات البدء هذه حين نقارن ذلك بالأخبار والحكايات التي تدور حول مرحلة لاحقة لمرحلة وجود الكتابة ، هي مرحلة إصلاحها ، مع أنها أقرب في العهد من الأولى ، وأولى منها بأن تكون أبعد عن الخرافة والأسطورية ؛ إذ كان من المفترض أن تكون حكاية الكتابة التي تروي أطرافاً منها وأحداثاً عنها في مرحلة التدوين والكتابة هي حكاية ما كُتب ووُجد من آثار مكتوبة ، فيخرج مسار الحديث هنا عن القص إلى مقاطع من تأريخ العلم[39] .

## حكاية الإصلاح : (من وضع الخط إلى وضع النقط)

سنلحظ عند النظر إلى الأخبار والحكايات التي تروي مرحلة الإصلاح الكتابي أنها تصمت عن فترات زمنية واسعة الامتداد من عمر الكتابة وتأريخ تطورها ، وتقفز قفزاً إلى مرحلة إسلامية اشتهرت في المصادر بأن تطويراً معيناً أنجز فيها هو ما يسمى بـ «نقط المصاحف» . لكننا نلحظ أيضاً في بنية الأخبار والحكايات أنها لا تبعد كثيراً عن تلك التي تُظْهِرُ المراحلَ السابقة ؛ إذ إنها تنسب الإصلاحَ إلى بعض ذوي المواهب والقدراتِ الفذة . ولعل من بين أشهر الحكايات التي ترد عادة في هذا السياق ما يؤثر عن أبي الأسود الدؤلي المشهور بأنه واضع علم النحو العربي . غير أن حكايات أبي الأسود تتداخل بصورة يتشابك فيها وضعه علم النحو مع وضعه نقط الحروف ، ويشتبه أحياناً نقط الحروف بين نقط الشكل ونقط الإعجام .

تكاد أغلب المصادر التي تحكي وضع أبي الأسود الدؤلي علم النحو تجعل وضعه للعلم استجابة لمظاهر اللحن وردة فعل على خشيته على اللسان العربي من الفساد والانحلال . غير أنها تضع في هذا السياق حكايةَ وَضْعِ نقط الشكل - مع أنه عمل يتعلق بإصلاح الكتابة وتطويرها - بوصفه عملاً يحفظَ اللغة ، ويضع أسس العلم بقواعد اللغة وقوانينها . ولعل هذا ما جعل بعض الباحثين يرجح أن أبا الأسود وضع النقط ولم يضع النحو[40] . روي في هذا الشأن أنه «سمع قارئاً يقرأ ﴿أنَّ الله بريء من المشركين ورَسُوله﴾[41] فقال : ما ظننت أن أمرَ الناس قد صار إلى هذا . فقال لزياد الأمير : ابغنيَ كاتباً لقناً ، فأتي به . فقال له أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة أعلاه ، وإذا رأيتني قد ضممت فمي فانقط نقطةبين يدي الحرف ، وإن كسرت فانقط نقطة تحت الحرف ، فإذا أتبعت شيئاً من ذلك غنةً فاجعل مكان النقطة نقطتين»[42] . وقيل : إنه أخذ النحو عن علي بن أبي طالب . وكان لا يُخرج شيئاً أخذه عن علي رضي الله عنه إلى أحد حتى حصلت حادثة اللحن في الآية فعمل النقط[43] . وتروي بعض المصادر أن زياداً لما استعفاه أبو الأسود وجّه رجلاً ، وقال له : اقعد

في طريق أبي الأسود ، فإذا مرَّ بك فاقرأ شيئاً من القرآن وتعمَّد اللحنَ فيه . ، ففعل الرجل ، ولما مرَّ به أبو الأسود قرأ الآية السابقة ملحونةً ، فاستعظم ذلك أبو الأسود ، واضطُرَّ لتحقيق رغبة زياد . ثم إنه طلب منه أن يرسل إليه ثلاثين رجلاً ، واختار منهم واحداً لكي يضع معه نقط المصحف[44] .

على أن الروايات الكثيرة عن أولية وضع النقط تشابكت واشتبهت ، فلم يعد من الممكن الفصل بوضوح تام بين تلك التي تذكر النقط مطلقاً دون تبيان إن كان نقطَ إعجام أو نقط شكل ، وتلك التي تجعله معيَّناً لأحد الأمرين دون الآخر ؛ إذ تختلف مصادر متعددة في اسم العالم الذي وضع أول نقط للحروف ، مع بقاء نوع النقط مبهماً . بل قد يورد المصدر الواحد أحياناً أقوالاً مختلفة متعارضة في ذلك . ويدور اختلاف الأقوال في هذه المسألة في الغالب حول أسماء أعلام معينين ، هم : أبو الأسود الدؤلي ، ويحيى بن يعمر ، ونصر ابن عاصم . وممن جمع بين الأقوال في إسناد الأولية لهؤلاء الثلاثة معاً الزركشي ، حيث يقول : «أسند الزبيدي في كتاب الطبقات عن المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي . وذكر أيضاً أن ابن سيرين كان له مصحف نَقَطَهُ له يحيى بن يعمر . وذكر أبو الفرج أن زياد بن أبي سفيان أمر أبا الأسود أن ينقط المصاحف . وذكر الجاحظ في كتاب الأمصار أن نصر بن عاصم أول من نقط المصاحف ، وكان يقال له نصر الحروف»[45] . ومنهم من عزا ذلك إلى يحيى بن يعمر وحده[46] ، أو إلى نصر بن عاصم وحده[47] . وأقحمت بعض المصادر مع الثلاثة المذكورين عبدالله بن أبي إسحاق ، مع أنه لا يرد في العادة إلا في سياق وضع علم النحو . قال أبو عمرو الداني : «قال أبو حاتم سهل بن محمد : أصلُ النقط لعبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي معلم أبي عمرو بن العلاء أخذه الناس عنه»[48] . وأقحم بعضهم مع المذكورين ميمون الأقرن وعنبسة الفيل . غير أنه يبدو أن بعض من جمع بين هذه الأسماء يرى أن وضع علم العربية يفضي بكل واحد من المشتغلين به والمجتهدين فيه من الأوائل إلى نقط خاص به . يقول الداني في هذا السياق : «حدثنا محمد بن علي قال نا ابن الأنباري قال نا أبي عن عمر بن شبة عن الثوري قال : سمعت أبا عبيدة معمر

ابن المثنى يقول : أولُ من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي ، ثم ميمون الأقرن ، ثم عنبسة الفيل ، ثم عبدالله بن أبي إسحاق . قال أبو عمرو : وكل هؤلاء قد نقطوا وأُخذ عنهم النقط وحُفظ وضُبط وقُيِّدَ وعُمِلَ به ، واتُّبِعَ فيه سنتهم ، واقتُدي فيه بمذاهبهم»[49] .

وتقترب مرويات أخر من إيضاح نوع النقط ، بذكر ما يدل عليه . فيُفْهَمُ من أكثرها أن النقط المتحدث عنه في المصادر المختلفة إنما هو نقط الشكل لا نقط الإعجام . ينقل الداني عن المبرد نصاً طويلاً يدل تسلسل المراحل المروية فيه على أن ذلك هو المراد بالنقط . قال : «قال محمد بن يزيد المبرد : لما وضع أبو الأسود الدؤلي النحو قال : ابغوا لي رجلاً وليكن لقنا . فطلب الرجل فلم يوجد إلا في عبد القيس ، فقال أبو الأسود : إذا رأيتني لفظت بالحرف فضممت شفتي فاجعل أمام الحرف نقطة ، فإذا ضممت شفتي بغنة فاجعل نقطتين ، فإذا رأيتني قد كسرت شفتي فاجعل أسفل الحرف نقطة ، فإذا كسرت شفتي بغنة فاجعل نقطتين ، فإذا رأيت قد فتحت شفتي فاجعل على الحرف نقطة ، فإذا فتحت شفتي بغنة فاجعل نقطتين . قال أبو العباس : فلذلك النقط بالبصرة في عبد القيس إلى اليوم . قال : وأخذ عن أبي الأسود ميمون الأقرن ، وأخذ عن ميمون الأقرن الخليلُ بن أحمد . وزاد الخليل في ذلك فجعل على الحرف المشدد ثلاث شبهات ، وأخذه من أول شديد . فإذا كان خفيفاً جعل عليه خاء وأخذه من أول خفيف . وقال أبو الحسن بن كيسان : قال محمد بن يزيد : الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل ، وهو مأخوذ من صور الحروف . فالضمة واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف ؛ لئلا تلتبس بالواو المكتوبة . والكسرة ياء تحت الحرف . والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف»[50] .

وقد ينص بعضهم على أن الأقرب إلى التصور هو أن النقط المختلف في واضعه هو نقط الشكل لا نقط الإعجام ؛ لأن منطق الأشياء الطبيعي يقتضي أن يكون نقط الإعجام قد وُضِعَ مع الحروف دفعة واحدة ؛ إذ صور الحروف متشابهة لا يعيِّنُ الفرقَ بينهاَ إلا النقط ، كالباء والتاء والثاء ، ويشترك معها في

أول الكلمة النون والياء ، وكالجيم والحاء والخاء وكالدال والذال ، والراء والزاي ، والسين والشين . . إلخ . قال القلقشندي : «يبعد أن الحروف قبل ذلك مع تشابه صورها كانت عرية عن النقط إلى حين نقط المصحف»[51] .

ومع هذا نجد في المصادر أحياناً ما يقلب هذا التصور ويُدير الشكّ حوله . قال بعضهم : إن «إعجام المصاحف لم يحدث على المشهور إلا في عهد عبدالملك بن مروان ؛ إذ رأى أن رقعة الإسلام قد اتسعت واختلط العرب بالعجم ، وكادت العجمة تمس سلامة اللغة ، وبدأ اللبس والإشكال في قراءة المصاحف يلح بالناس حتى ليشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهي غير معجمة . هنالك رأى بثاقب نظره أن يتقدم للإنقاذ ، فأمر الحجاج أن يعنى بهذا الأمر الجلل . وندب الحجاج طاعةً لأمير المؤمنين رجلين يعالجان هذا المشكل ، هما : نصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر العدواني . وكلاهما كفءٌ قديرٌ على ما نُدب له ؛ إذ جمعا بين العلم والعمل ، والصلاح والورع ، والخبرة بأصول اللغة ووجوه قراءة القرآن ، وقد اشتركا أيضاً في التلمذة والأخذ عن أبي الأسود الدؤلي . ويرحم الله هذين الشيخين فقد نجحا في هذه المحاولة ، وأعجما المصحف الشريف لأول مرة ، ونقطا جميع حروفه المتشابهة ، والتزما ألا تزيد النقط في أي حرف على ثلاث . وشاع ذلك في الناس بعدُ ، فكان له أثره العظيم في إزالة الإشكال واللبس عن المصحف الشريف»[52] .

ويستنتج المتأخرون من عموم مفهوم الروايات ، ومن بين سطور الحكايات ، وأحياناً بحسب ما يلميه التصور الخيالي غير المستند إلى ما يؤكد بصورة قطعية مراحل نشوء الكتابة وتطورها ، تدريجاً معيناً للتطور الكتابي يغلب عليه الاجتهاد الشخصي ، إن لم يكن التخمين لا غير . ويكاد التصور الذي يشيع في الدراسات اليوم لا يخرج عن أن الحروف لم تكن منقوطة ولا مشكولة ؛ لثقة العرب في أن سليقتهم وحدها كافية في الوصول إلى المراد من السياق ، حتى وضع أبو الأسود نقطَ الشكل ، وأصلحها بعدُ الخليلُ بصور

الحركات المعروفة اليوم . ثم وَضَعَ نقطَ الإعجام في عهد عبدالملك بن مروان نصرُ بن عاصم ، وقيل : يحيى بن يعمر ، كما قيل : إنه الحسن البصري ، وقيل : جميع هؤلاء[53] .

ولعل من بين أهم أسباب تبلور هذه التصورات وثباتها على حال واحدة تبدو غيرَ قابلة للتغيير إجمالاً أنَّ عامة الباحثين اطمأنوا إلى المرويات المبثوثة في التراث العربي طريقاً إلى تحقيق قضية مراحل الإصلاح الكتابي ، فكان لا مفر من أن تكون المصدرَ التأريخي الوحيد الذي لا يتيح بالضرورة أكثر من الموازنة بين الروايات وترجيح بعضها على بعضها الآخر .

أما المصادر التي اتخذت من النقوش والوثائق سنداً لها وأغفلت المرويات – وتمثلها دراسات المستشرقين – فقد انتهت في نقط الحروف إلى صورة أخرى مغايرة للصورة المذكورة آنفاً . ويبدو أن للمنهج عند المستشرقين مفهوماً يختلف عنه عند الباحثين العرب ؛ إذ لم يكن عندهم كما هو عند هؤلاء ، مجرد سرد وجهات النظر بطريقة منظمة مع الإحالات والمراجع فقط ، بل هو مفهوم المنهج في الفكر الحديث ، أي : النقد المبني على القطيعة المعرفية مع مضمون الحكايات[54] . يقول المستعرب جيرهارد أندرس بوخوم في نقط الإعجام نقلاً من تحليل جروهمان وكسلر لوثائق ولوحات ومخطوطات عربية قديمة : «ففي أقدم شواهد الخط العربية من العصر الإسلامي برديتان ترجعان إلى سنة 22هـ/ 643م ، عُلّمَت الحروف (خ) و(ذ) و(ز) و(ن) من خلال وضع نقطة فوق كل منها ، و(ش) من خلال نقاط ثلاث وضعت متجاورة . وفي بردية أخرى من النصف الأول من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي ميزت الحروف (ذ) و(ك) و(ن) بخطوط قصيرة . وعلى نحو مماثل نجد في نقش بناء يرجع إلى سنة 58هـ/ 677م لسدٍّ بالقرب من الطائف علامات مميزة مع (ب) نقطة تحت الحرف – كما في الخط القديم دائماً – مباشرة تحت الشظية في الشكل المستقل . و(ن) نقطة فوق الحرف . و(ي) و(ت) نقطتان في ترتيب رأسي أو مائل تحت (ي) وفوق (ت) . و(ث) ثلاث نقاط في ترتيب رأسي أو مائل فوق الحرف . ويوجد

الكم الكلي للعلامات المميزة تقريباً في تركيبها الذي ما يزال باقياً إلى اليوم في نقش الفسيفساء لقبة الصخرة 72هـ/ 691م»[55] . ولهذا يؤكد الباحث أنه «لإنشاء نصٍّ واضح فُرِّقَ بين رسوم الحروف المتجانسة هذه منذ وقت مبكر - ربما في زمن ما قبل الإسلام - من خلال علامات مميزة مع حروف الكتابة»[56] . وهو ما يتفق مع قول القلقشندي السابق ، ومع ما يقتضيه أيضاً منطق الرسم المتشابه الذي لا يميزه غير النقط ، وإلا فإن الأولى من غير هذا التمييز أن تُخترع رموزٌ مختلفة غير متشابهة[57] . أما القول بأن العرب تسعفهم سليقتهم فلا يحتاجون إلى الفصل بين هذا العدد الهائل من الرموز المتشابهة فقولٌ فيه من المبالغة والاعتداد بحكمة العرب ما لا يخفى[58] . نعم يمكن القول : إنه قد يُستغنى عن النقط في بعض النقوش في سياقات قصيرة واضحة ومحددة لا تلتبس بغيرها ، كنقط البسملة مثلاً ؛ ربما لأغراض جمالية في الخط أحياناً .

ويعرض كيس فرستيغ ظاهرة اعتماد العربية على رموز كتابية متشابهة يُفرَّقُ بين كل متشابهين أو أكثر أحياناً بالنقط ، وهي ظاهرة غريبة بعض الشيء عند الغربيين ، وذلك بالنظر إلى الجذور الآرامية الأصل لرموز الكتابة العربية . ويصل إلى أن الخط الآرامي لم يستطع التعبير عن الفونيمات العربية كاملة ، فكان النقط ؛ ليجعل الشكل الواحد لفونيمين أو أكثر برسم نقطة أو أكثر على الشكل نفسه . وقال أيضاً : «من الممكن أن تكون مشكلة النقط قد حلت قبل الإسلام ؛ فهناك بعض الإشارات إلى أن الكتّاب المبكرين كانوا يستخدمون النقط للفصل بين الحروف المتشابهة»[59] . ويشير إلى أن ظاهرة التمييز بالنقط عرفت في الخط السرياني «للفصل بين "ألوفونات" الفونيم الواحد[60] . بل يقول بعض العلماء : إن هناك إشارات إلى استخدام النقط في الكتابة الآرامية أيضاً»[61] . وهذا معناه أن النقط انتقل مع الحروف إلى العربية منذ انتقل إليها الأصلُ الآرامي الأول .

وفيما لا شواهد علمية قديمة تقرِّب القول بأقدم وجود له ، وهو رسم الحركات ، يذهب هذا النوع من المصادر إلى استقراء تأريخ الكتابة وعمل

المقارنات بين العربية وغيرها، مما يمكن أن يدل دليلٌ ما منه على التأثر والتأثير بين العربية ولغات تشترك معها في الظاهرة نفسها. غير أن تأريخ هذا النوع من الإصلاح الكتابي يبقى أكثر غموضاً والتباساً من سابقه. وربما ساعد على مزيد من الغموض والالتباس كونُ العربية اعتمدت في صورتها الكتابية على رسم الصوامت والمدود دون الحركات الصوائت. ولهذا لا ينكر أن نجد نصوصاً في هذا الزمان – فضلاً عن القديم – غيرَ مضبوطة بالشكل؛ إذ لا تكاد العربية تلجأ إلى ضوابط الحروف بالحركات القصيرة إلا في حال خيف الالتباس. بل لقد أظهرت نماذج من الخط العربي القديم كالرسم العثماني وغيره تجاهل رسم حروف المد الطويلة، نحو إسمعيل وإسحق وهرون وخلد والرحمن.. إلخ. وربما كان هذا الأمر أيضاً مما يضعِّف روايات وضع نقط الشكل المأثورة، من حيث ربط الوضع بالندب إليه للحاجة إليه، وإن كان من الممكن أن النقط قد كان هو صورة الحركات المبكرة قبل أن تستقر على حالها اليوم؛ إذ لا أقل من الاعتقاد بضعف القول بالحاجة الملحة التي دفعت من يندب العلماء إلى إيجاد حركات لم تعترف اللغة بها في ضمن حروفها الكتابية أصلاً، بقطع النظر عن صحة روّاية الندب أو عدمها. هذا إلى ما في المرويات نفسها من خلل لا يصح معه الاعتماد عليها مصدراً وحيداً لتلقي تأريخ الكتابة وإصلاحها، كما سيأتي.

ذكرت المصادر العلمية أن نقط الشكل في مخطوطات المصاحف لم يُعثر على أقدم شيء منه إلا في مصاحف من منتصف القرن الثاني الهجري. ويستنتج بوخوم «أنه في منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ناقش القراء والقضاء هل يمكن إضافة العلامات المساعدة... إلى الرسم المقدس لنص القرآن الذي دون حسب الوحي، وتجادلوا حول هذا السؤال»[62]. وهو هنا يشير إلى الروايات التي أُثرت عن كثيرين كرهوا نقط المصاحف، منهم: روح بن عبادة والقاضي الأوزاعي ومالك بن أنس[63]. ولعل هذه الكراهية إن صحت لا تدل إلا على أن اجتهادات فردية قد حصلت في بعض المصاحف عند كلمات معينة ملبسة في حال نطقها بإحدى إمكانات الضبط المختلفة الأخرى، وذلك بوضع علامات أمام النصوص الملبسة، وأن الكراهة إنما كانت لخلط كلمات

النص القرآني بما هو غريب عنه غير مألوف . ولو أن اختراع نقط الشكل كان أصلاً بسبب الخشية على القرآن من الفساد كما يقال ، ولو أنه كان قد شاع حتى أصبح جزءاً من بنية الكتابة العربية منذ قرن قبل ذلك ، ما كُره فيه .

ويعلق فرستيغ على رواية أبي الأسود مع كاتبه الذي يراقب شفتيه بقوله : «في هذه الرواية ينسب الراوي النقط بأصوات اللين القصيرة لأبي الأسود الدؤلي . ونستشف أيضاً أن أسماء الفتحة والكسرة والضمة مرتبطة بطريقة نطق تلك الأصوات . وعرفنا من المصادر العربية الإسلامية أنه كانت هناك معارضة شديدة لاستخدام نقط أصوات اللين في مخطوطات القرآن الكريم . وفي حقيقة الأمر لا يوجد نقط في المخطوطات الأولى للقرآن ، وهي المخطوطات المكتوبة بالخط الكوفي ، وكذلك لا توجد أي رموز لتلك الأصوات في النقوش العربية المبكرة التي تعبر عن نص قرآني . وفي بعض المخطوطات أضيف النقط المعبر عن أصوات اللين القصيرة باليد بعد فترة من كتابة المخطوط القرآني الأول»[64] .

## المرويات ومفردة «الوضع»

لا بد من الإشارة أولاً إلى أن مرويات إصلاح الكتابة تشابه مرويات نشأتها ، من حيث اشتراكهما في أمر جوهري هو هيمنة الاعتقاد بـ «الوضع» . فالكتابة ابتدأت بواضع ، وإصلاحها كان على يدي واضع أيضاً . ولا بد من الإشارة ثانياً إلى أن المرويات الشائعة في التراث عن وضع النقط ، وعن وضع علم النحو ، وهي متشابكة كما مر ، ففي بنيتها الحكائية التي قامت عليها ما يبعدها عن أن يعوَّل عليها وحدها مصدراً لتكوين تصورات معرفية صلبة عن الكتابة وتطورها . إذ لو نظرنا إلى مفردة «الوضع» نفسها مثلاً ، والتي تقتضي أنَّ شخصاً بعينه يضع علماً أو علوماً ، وصرفنا النظر عن كل ما يُظهِرُ عدمَ معقولية حكاية الوضع في مضامينها[65] ، لوجدنا أن هذه المفردة أبعد من أن تصف نشأة علم ما من العلوم ، ولا تصح في سياق التأريخ للعلوم وتطورها ، ما دامت تقتضي واضعاً معيَّناً . وَجَعْلُ «حادثة» ما تحدث ، فيستجيب شخصٌ ما للحادثة فيضع العلم أو يأمر أحداً بوضعه ، هو أمرٌ - فيما أرى - أقربُ إلى الخيال منه

إلى الواقع[66] . على أن التداخل في الحكاية بين الوضعين (وضع النحو ووضع النقط) قد يساعد على نفيهما ، ولا يثبت آياً منهما . ذلك أن أبا الأسود حين سمع رجلاً يلحن في الآية ، وهو فساد شفوي يتعلق بالمتكلمين وفساد سليقتهم ولحن ألسنتهم وليس فساداً كتابياً ، استجاب له - بحسب أكثر الروايات شيوعاً وترددا في المصادر - بوضع النقط وهو إصلاح كتابي يهم القراء والكُتّاب لا المتكلمين . هذا مع أن بعض الباحثين ، كالدكتور شوقي ضيف ، يستنتج من الرواية أن الأقرب إلى طبيعة الأشياء أن يكون أبو الأسود الدؤلي قد استجاب للحادثة بوضع النقط لا بوضع النحو . إذ يرى أن الخلط بين الأمرين إنما كان بسبب أن الرواة سموا النقط بـ «علم العربية» ، فظن الناس أنهم يقصدون علم النحو . وعلى هذا يكون أبو الأسود الدؤلي واضع علم العربية ، أي : النقط ، لا واضع علم النحو[67] . ويبدو أن تفضيل الباحث أحد الخيارين وهو «وضع النقط» على الخيار الآخر وهو «وضع النحو» ينبع فقط من ذلك أهون من التسليم بقدرة شخص واحد على وضع علم كامل يحتاج إلى التبويب والتقعيد . ولذا يرجّح أن نسبة وضع النحو إلى أبي الأسود قد دفعت إليها أسباب حزبية[68] .

ولعل مفردة «الوضع» - وهي تذكّرنا على أية حال بمعنى الانتحال والتزييف (الأحاديث الموضوعة ، والأخبار الموضوعة ، والأشعار الموضوعة . . إلخ) - كانت مفردة مسيطرة على الذهنية المنتجة للحكاية ؛ ربما لأنها قد رافقتها نظرة تغلب عليها التوقيفية ، سواء أكان ذلك بوعي أم بغير وعي ، بحيث سارت بخفية حتى في أذهان من لم يُعْرف عنهم قول صريح في القول بالتوقيف أو بضده . ذلك لأن الاعتقاد بالواضع وبقدرته إنما يسير في هذا الاتجاه ، وإن علّقَ الوضعَ بغير المصدر الإلهي كما رأينا عند من جعل مصدر الكتابة بشرياً فيما مضى مثلاً . وعلى هذا يشبه الذين علقوا النقط بواضع في هذا الجانب أولئك الذين نسبوا مصدر الكتابة برمتها إلى واضع ، ويشبهون جميعاً مَنْ جعل مصدرها وحياً . فالاختلاف بين الفريقين إنما هو تنويع في السطح على اتجاه واحد فقط في العمق . وهنا يصل المآل بالجميع إلى «وضع» الحكايات التي تصف نشأة العلوم وتطورها ، أو في الأقل : يرون الحكايات «الموضوعة» مسلّمين بها .

«وضع» الحكاية هنا في هذا السياق هو وسيلة من وسائل تعبير الذهنية عن اعتقادها الراسخ بقدرة «واضع» العلم، وبضرورة وجوده في العلوم المختلفة، والتي ظاهرها الاختلاف والتعدد، بل ظاهرها أحياناً التعارض، تحت بنية ثقافية واحدة مهيمنة على الذهن. ومن بين أهم ذلك في الثقافة العربية خاصة، ما تعرضه الدراسات من شواهد على اشتراك مفاهيم وتصورات في صلب العلوم العربية المختلفة مع تصورات فلسفية وكونية قارة في عمق الثقافة. إذ قد تشكّلَ في التراث العربي منظومة من المفاهيم وبعض العبارات والجمل الثقافية التي أمكن للدارسين تسويغ القول فيها بأنها وما يشبهها تنبثق من تصورات قارة للإنسان والكون، وأسهم في تشكلها أساس ثقافي ما[69].

وبناءً على ما تقدم يمكن لنا الخلوص إلى القول: إن شيوع الاعتقاد بأن العلوم لا بد لها من واضع فذ، وهو الاعتقاد الذي ساد في نشأة علوم أخرى غير الكتابة (كالنحو والعروض مثلاً) وألصقها بواضع، قد أسهم في إنتاج المرويات التي حكت بدء الكتابة، وكذا التي حكت نقطها نقطَ شكل أو نقط إعجام، وشكّل بنيتها ومضمونها، بحيث يكون ابتداء ذلك كله إما من مصدر إلهي أو نبوي أو على يدي موهوب فذّ من البشر معروف باسمه، وتُتناقل سيرته في الأجيال (كأبي الأسود الدؤلي). هذا الاعتقاد هو الذي نزعم هنا أنه «أسَّسَ» الحكاية، وأن الحكاية «أسَّسَت» من جانبها تأريخ الكتابة بشقيه (البدء والإصلاح). فالمرويات المتناولة في هذه الدراسة إذاً صورةٌ أخرى من صور «الحكاية المؤسسة» لمفاهيم الثقافة التراثية. لقد بنت مرويات الكتابة بوصفها حكايةً مؤسسةً قصة الكتابة بصورة صلبة، بحيث لم يتنبه متناقلوها إلى ما فيها من تناقضات وغفلوا عن عدم معقولية كثير من جوانبها المختلفة. وقد ذكرنا فيما مضى صوراً كثيرة من منافاة المرويات لأدنى حدود القبول، وذكرنا بعض حيل السرد في الاتكاء على الأسس الثقافية الراسخة لتمرير ذاته، ودعم التصورات المنبنية عليه. ولهذا رأينا على مدى الصفحات السابقة الفرق شاسعاً في تلقي تأريخ الكتابة وعرضه بين من استند إلى المرويات، ومن أعرض عنها واتخذ إلى ذلك طرقاً أخرى.

# الهوامش والمراجع

(1) سيشار في موقع لاحق من هذه الدراسة إلى «الحكاية المؤسّسة» وإلى بعض تجلياتها في الثقافة العربية .

(2) ينظر مثلاً : السيوطي ، عبدالرحمن بن أبي بكر - سبب وضع علم العربية ، تحقيق : مروان العطية ، ط1 ، دمشق : دار الهجرة ، سنة 1988م ، ص42-43 ، وابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد - **وفيات الأعيان وأنباء الزمان** ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت : دار الثقافة ، سنة 1968م ، (2/ 537) ، والعسقلاني ، أبو الفضل أحمد بن علي - **الإصابة في تمييز الصحابة** ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط1 ، بيروت : دار الجيل ، سنة 1412هـ/ 1992م (3/ 562) ، وابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر - **البداية والنهاية** ، بيروت : مكتبة المعارف (8/ 312) ، والسيوطي ، عبدالرحمن بن أبي بكر - **تاريخ الخلفاء** ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط1 ، مطبعة السعادة بمصر ، سنة 1371هـ/ 1952م ، ص181 .

(3) ثمة ارتباط وثيق بين الكتابة والسحر ، ربما لأن الكتابة نفسها هي (السحر) بمعنى من المعاني . ما زال السحرة إلى الآن يوهمون الناس بأنهم بالكتابة يمكن أن يتحكموا في مصائرهم . ولا بد أن يتذكر كل من عاش في بيئة لم تشع فيها الكتابة كيف يمكن للكاتبين أن يمارسوا على الأميين ما يمكن تسميته على نحو ما بالسحر أو بما يشبه السحر .

(4) من الآية 31من سورة البقرة .

(5) من أشهر من تشبث بالقول بالتوقيف في عموم ظواهر اللغة ، وتمسك أيضاً بالقول بالتوقيف في وضع العلوم كالنحو والعروض والخط وغيرها ، ابنُ فارس . قال في الصاحبي : «فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية ، وأن الخليل أول من تكلم في العروض . قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأتت عليهما الأيام ، وقلا في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان» . ابن فارس ، أبو الحسين أحمد : **الصاحبي** ، تحقيق : السيد صقر ، القاهرة : عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ص13 .

(6) القلقشندي ، أحمدج بن علي : **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** ، تحقيق : يوسف علي طويل ، ط1 ، دمشق : دار الفكر ، سنة 1987م (3/ 10) .

(7) عبدالرحمن بن أبي بكر : **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** ، تحقيق : فؤاد علي منصور ، ط1 ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1998م (2/ 294) .

(8) المزهر 2/ 293 .

(9) القنوجي ، صديق بن حسن : **أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم** ، تحقيق : عبدالجبار زكار ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1978م (1/ 162- 163) .

(10) صبح الأعشى 3/ 13 . وينظر البداية والنهاية 12/ 14 ، والمزهر 2/ 293 .

(11) تنسب مصادر إلى إدريس عليه السلام أنه أول من خط بالقلم . ينظر مثلاً المقدسي ، مطهر بن طاهر : **البدء والتاريخ** ، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية (3/ 13) .

(12) انظر الطبراني ، أبو بكر أحمد بن عمرو : **الأوائل** ، تحقيق : محمد بن ناصر العجمي ،

الكويت : دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، ص69 . وابن حنبل ، أحمد بن محمد : **مسائل الإمام أحمد** ، تحقيق فضل الرحمن دين محمد ، ط1 ، دلهي : الدار العلمية ، 1988م ، ص337 . ويلفت النظر في غالب المرويات التي من هذا القبيل الارتفاع بالقول بها إلى ابن عباس .

(13) الآيات ، 1 ، 2 ، 3 من سورة الشورى .

(14) صبح الأعشى 3/ 10 . 11 .

(15) الأصبهاني ، أحمد بن عبدالله : **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ط4 ، 1405هـ (7/ 251) .

(16) ابن منظور ، محمد بن مكرم : **لسان العرب** ، بيروت : دار صادر( مادة مر) .

(17) صبح الأعشى ، 3/ 12- 13 .

(18) النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق : **الفهرست** ، بيروت : دار المعرفة ، 1398هـ/ 1978م ص 6- 7 .

(19) المزهر ، ص/ 294 .

(20) الواقدي ، أبو عبدالله بن عمر : **فتوح الشام** ، بيروت : دار الجيل (2/ 216) .

(21) من ذلك ما ورد في حلية الأولياء (7/ 251- 252) وهو أن عيسى قال : (أبو جاد : الألف آلاء الله ، والباء بهاء الله ، جيم جمال الله ، دال الله الدائم - هوز : الهاء الهاوية ، والواو ويل لأهل النار ، والزاي واد في جهنم ، وحطي : الحاء الله الحليم ، والطاء الله الطالب لكل حق حتى يؤديه ، والياء آي أهل النار وهو الوجع - كلمن : كاف الله الكافي ، لام الله العليم ، ميم الله الملك ، نون البحر - سعفص : صاد الله الصادق ، والعين الله العالم ، والفاء الله الفرد ، وصاد الله الصمد - قرشت : قاف الجبل المحيط بالدنيا اخضرت منه السموات ، والراء رأي الناس لها ، والشين شيء لله ، والتاء تمت) .

(22) يذكر كثيرون أن أول ما خلق الله القلم . وبعضهم يقرر أن أول ما خلق الله الحروف ، أو اللوح المحفوظ . ينظر : القاضي ، النعمان بن حيون : **أساس التأويل** ، تحقيق : عارف تامر ، بيروت : دار الثقافة ، سنة 1960م ، ص63 ، والمسعودي ، أبو الحسن بن علي : **أخبار الزمان** ، بيروت : دار الأندلس ، سنة 1966م ص26 . ويقول بعض الباحثين : «إن الوجود على وفق الرؤية الدينية . . . ما هو إلا فعالية كتابية مستمرة من إنتاج الخطاب . إن الكون وموجوداته يعيشان في سراب الكتابة منذ ابتداء الزمان إلى منتهاه . وهو إنما هو تدافع حروف القلم على اللوح المحفوظ» . إبراهيم ، عبدالله : السردية العربية ، **بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي** ، ط1 ، بيروت والدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، سنة 1992م ص23 .

(23) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير - **تاريخ الأمم والملوك** ، ط1 ، بيروت : دار الكتب العلمية ، سنة 1407هـ (1/ 33- 34) . وينظر ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي : **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ، تحقيق محمد ومصطفى عبدالقادر عطا ، ط1 ، بيروت : دار الكتب العلمية ، سنة 1412هـ/ 1992م (1/ 122- 123) ، والبداية والنهاية 1/ 15 . والكامل في التاريخ 1/ 17- 18 .

(24) صبح الأعشى 3/ 22 .

(25) الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي : **تاريخ بغداد** ، بيروت : دار الكتب العلمية (13/ 270) .

(26) الفهرست ، ص6 . وينظر المزهر 2/ 294 .

(27) المنتظم 1/ 325 .

(28) البدء والتاريخ 3/ 77 .

(29) اللسان مر .

(30) زكريا ، فؤاد : **التفكير العلمي** ، الكويت : منشورات ذات السلاسل ، ط3 ، 1989م (ص67) .

(31) ينظر إلياد ، مرسيا : **مظاهر الأسطورة** ، ترجمة نهاد خياطة ، ط1 ، دار كنعان للدراسات والنشر ، 1991م ، ص10 .

(32) بريست ، جون ف . **الأسطورة والحلم في الكتاب المقدس العبري** ، ترجمة : نذير جزماتي ، منشور ضمن كتاب **(الأساطير والأحلام والدين)** تحرير جوزيف كامبل ، ط1 ، دمشق : دار الكلمة ودار الشفيق ، 2001م ص48 . وهذا النص نقله بريست عن إديث هاملتون . وكذا ينقل عن جيمس بار أن التفكير الأسطوري يكافح للوصول إلى تفسير أو إلى معنى لكل ما هو مهم . ص50 .

(33) الاساطير والأحلام ، ص49 .

(34) ينظر مبحث الخرافة والبطل الخرافي في السردية العربية ، ص116 ، ومبحث الأسطورة والخرافة من كتاب التفكير العلمي ، ص67 .

(35) ينظر العجمي ، فالح شبيب : **اللغة والسحر** ، ط1 ، الرياض : مجهول جهة النشر ، 1424هـ/ 2003م ، ص116 .

(36) درج في الثقافة العربية على مدى قرون طويلة إشاعة الانحياز الثقافي لكل ما هو عربي بصورة تنقصها العلمية ، من ذلك وصف اللغة العربية بصفات لا يمكن تسويغها علمياً . وليس هذا الانحياز بمقصور على العرب أو على الثقافة العربية ، بل هو شائع لا تكاد تسلم منه ثقافة ما معينة . ينظر في هذه المسألة : المزيني ، حمزة بن قبلان - **التحيز اللغوي وقضايا أخرى** ، سلسلة كتاب الرياض ، ط1 ، 1425هـ/ 2004م ، 30-072 . وانظر ما سيأتي في الصفحات القادمة عن التعويل على السليقة العربية بديلاً من رموز كتابية .

(37) السردية العربية ، ص16 .

(38) حلل ألبرتو مانغويل أكثر الاحتمالات المتصورة عن ابتداء الكتابة إمكاناً وقبولاً . ورأى أن هذا الفن الذي كان مقدراً له أن يغير طبيعة العلاقة في المجتمع البشري بعدُ إلى الأبد من أن تكون دوافعه الأولى حياتية ، ووراءه ضرورات اقتصادية . ولا بد أنه اختراع أريد به أن يكون بمثابة ما سماه مانغويل بـ «دعائم للذاكرة» . انظر مانغويل ، ألبرتو : **تاريخ القراءة** ، ترجمة سامي شمعون ، بيروت : دار الساقي ، ط1 ، 2001م ، ص206 . وكذا تناول الباحثون النظريات التي تفترض أدواراً مرت بها الكتابة ، تدرجت بحسب ما يُعتقد أنه الأقرب إلى التصور وطبيعة الأشياء في نشوء المبتكرات التي واجه بها الإنسان ضروراته الحياتية ، ووُجِدَ لكل دور نماذج تمثله في الآثار . من هذه الأدوار أربعة رئيسة هي : الدور الصوري الذاتي ، والدور الصوري

الرمزي ، والدور المقطعي ، والدور الهجائي . انظر مثلاً : زيدان ، جورجي : **الفلسفة اللغوية** ، مراجعة : مراد كامل ، دار الهلال 160-164 .

(39) سيتضح في نهاية الورقة وجه شبه كبير بين اتجاهين رئيسين هما (التوقيف والاصطلاح) أنتجا حكاية الكتابة كلها . وسيتبين أنهما جميعاً تنويع في السطح على اتجاه واحد فقط في العمق . ويصدق هذا الأمر على حكايتي البدء والإصلاح معاً .

(40) يشك أحمد أمين مثلاً في نسبة وضع علم النحو إلى أبي الأسود ، وينطلق من تضارب الروايات وتناقضها ؛ إذ من الروايات ما ينسب وضع النحو إلى أبي الأسود ، ومنها ما ينسبه إلى نصر بن عاصم ، أو إلى ابن هرمز ، أو إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ويرى أن قانون «النشوء والارتقاء» الطبيعي يوجب أن يسبق وضعُ الحركات وضعَ النحو ، فيرجّع تبعاً لذلك نسبة وضع الحركات إلى أبي الأسود فيما عُرِفَ بالنقط . انظر أمين ، أحمد - ضحى الإسلام ، ط8 ، مكتبة النهضة المصرية (2/ 285) . هذا وسيأتي في الصفحات القادمة أن شوقي ضيف أيضاً يرى أن طبيعة الأشياء تقتضي أن يسبق وضعُ النقط وضعَ النحو .

(41) سورة التوبة ، من الآية 3 .

(42) الذهبي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد : **سير أعلام النبلاء** ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمد العرقسوسي ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط9 ، 1413هـ ، 4-83 .

(43) الفهرست ، ص59 .

(44) انظر ابن أبي هاشم ، عبدالواحد بن عمر - **أخبار النحويين** ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط1 ، طنطا : دار الصحابة للتراث ، سنة 1410هـ ، ص37-39 . هذا وقد تظهر مثل هذه الحكاية من جانب خفي حاجة الخليفة الأموي إلى علم أبي الأسود ، وتمنّع هذا الأخير عن تحقيق رغبته حتى يظهر له بعد ذلك مدى نفع ما سيقوم به خدمة للدين .

(45) الزركشي ، أبو عبدالله محمد بن بهادر . **البرهان** . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت : دار المعرفة ، 1391هـ ، 1/ 250-251 .

(46) ينظر مثلاً الألوسي ، أبو الفضل محمود : **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ص13-103 .

(47) قيل في عاصم هذا إنه واضع العربية ، وهو الوصف الذي يوصف به كثيراً أبو الأسود الدؤلي . وقيل في عاصم أيضاً : إنه أول من نقط المصاحف وخمسها وعشرها . ينظر مثلاً : الذهبي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد : **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار** ، تحقيق : بشار معروف وآخرين ، ط1 ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، سنة 1404هـ ، 1-71 .

(48) الداني ، أبو عمرو عثمان بن سعيد - **المحكم في نقط المصاحف** ، تحقيق : عزة حسن ، دمشق : دار الفكر ، ط2 ، 1407هـ ، ص 7 .

(49) المحكم ، ص6 .

(50) المحكم ، ص 6- 7 .

(51) صبح الأعشى ، 3-149 .

(52) الزرقاني ، محمد عبدالعظيم : **مناهل العرفان في علوم القرآن** ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات ، بيروت : دار الفكر ، ط1 ، 1996م ، 1/ 28-281 .

(53) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : الخثران ، عبدالله أحمد : **مراحل تطور الدرس النحوي** ، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، 1413هـ/ 1993م ، 51-58 . وآل ياسين ، محمد حسين : **الدراسات اللغوية عند العرب** ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، ط1 ، 1400هـ/ 1980م ، 53-55 . شوحان ، أحمد : **رحلة الخط العربي من المسند إلى الحديث** ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، 2001م ، 27-28 .

(54) ينظر في المزيد من التفصيل عن مسألة المنهج في الفكر الحديث : العروي ، عبدالله : **مفهوم العقل** ، بيروت والدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ط2 ، 1997م ، فقرة : الرأي والمنهج ، 11 ، 12 .

(55) بوخوم ، جيرهارد أندرس : «أصل الخط العربي وتطوره» ، **الأساس في فقه اللغة العربية** ، تحرير فولفيدريتش فيشر ، ترجمة : سعيد بحيري ، القاهرة : مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، ط1 ، سنة 1422هـ/ 2002م ، 86 . وينظر هوامش الباحث رقم77 ، 78 ، 79 ، 80 في ص 105 .

(56) الأساس في فقه اللغة ص 85-86 . ونلاحظ هنا أن إثبات الشواهد لأقدم زمن وجدت الظاهرة فيه معناه أنها قطعاً قد وجدت قبله ، لكن لا يعلم على وجه القطع متى وجدت .

(57) يُشْعِر الترتيب الهجائي للحروف : أ ب ت ث ج ح خ . . . إلخ ، الذي يضم الحروف المتشابهة التي يميز النقط بعضها عن بعض بصورة مرتبة ومتدرجة في النقط بحيث يكون المهمل قبل المعجم ، والمنقوط بنقطة واحدة قبل المنقوط بنقطتين ، والمنقوط باثنتين قبل المنقوط بثلاث ، بأن الرمز الواحد حظي بما يمكن من التنويعات ليقل عدد الرموز ما أمكن ، ولو لم يكن كل نقط علامة كما أن ترك النقط هو علامة أيضاً لوُضِعَ رمزٌ آخر مختلف . كما أن الوصول بالنقط إلى ثلاث فقط لا يتعداها معناه أنه يُخشى إن زادت عن هذا العدد أن يتداخل العدد على الذي يعد أو ربما أسقط منها شيء لكثرتها أو ربما ثقلت في الكتابة وفي القراءة ونحو ذلك . ويمكن القول أيضاً بأن افتراض وضع الرموز متشابهة من غير نقط ، بحيث تستوعب فيما بعد إذا نقطت ما لا يزيد عن ثلاث فقط ، فكأن وضع الرمز غير منقوط محسوب فيه منذ البدء ما سيصير عليه بعد عند النقط ، من أبعد ما يمكن تصوره وتصديقه . أما الترتيب الأبجدي : أبجد هوز . . إلخ ، مع أنه يشعر بعدم وضع ما هو مهمل وما هو معجم في الحسبان ، فالظاهر أنه ترتيب مراعى فيه أن يكون في كلمات يسهل حفظها . كما يظهر أيضاً أنها مقاطع يمكن الترنم بها وإنشادها ؛ لأنها على أربعة أحرف ساكنة الآخر ، أو ثلاثة مضعف أحد حروفها ، أو ثلاثة يكمل التنوين رابعها . ولم يكد يوجد في الثقافة ترتيب آخر ، إلا الترتيب الصوتي المنسوب إلى الخليل ، وواضح أنه ترتيب وضع لغرض علمي محدد معروف .

(58) شاعت في الثقافة العربية عبارات - يبالغ في تعميمها أحياناً بحيث يؤدي ذلك إلى سوء فهم المراد منها - تمتدح السليقة العربية وحكمة العرب ، وأن ألسنتهم لا تطاوعهم على اللحن والخطأ . . إلخ . وهي لا تصح بهذه الصورة إلا إذا كانت تعني أن معرفة الإنسان للغته تجعله يتكلم بها بعفوية ، فلا يخطئ أو يخرج عن قوانينها كما يخرج عن ذلك الغريبُ عنها . وفضلاً عن ذلك تشيع في الثقافة العربية أيضاً عبارات كثيرة تنم عن قدر كبير من التحيز اللغوي غير

العلمي للعربية، كما سبق التنويه عن ذلك فيما مضى.

(59) فرستيغ، كيس : **اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها**، ترجمة : محمد الشرقاوي، القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ط1، ، 2003م، 77.

(60) الألوفونات هي الصور المتعددة المتحققة لحرف واحد هو الفونيم. ففونيم النون في العربية على سبيل المثال له ألوفونات متعددة، منها : النون المخفاة والنون المظهرة والنون المقلبة، وهكذا. ينظر في هذه المسألة مثلاً : عمر، أحمد مختار : **دراسة الصوت اللغوي**، القاهرة : عالم الكتب، سنة 1411هـ/ 1991م، 175، والخولي، محمد علي : **الأصوات اللغوية**، الرياض : مكتبة الخريجي، ط1، سنة 1407هـ/ 1987م (ص58).

(61) اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ص77.

(62) أصل الخط العربي وتطوره، في كتاب الأساس، ص90.

(63) ينظر المحكم، 11، وصبح الأعشى 3/ 149-150.

(64) اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ص77.

(65) لا شك أن في هياكل الحكايات كثيراً ما يمكن قراءته وتعليل وجوده، كالأسباب الإيديولوجية التي توجه القص وجهة سياسية أو دينية أو عرقية معينة مثلاً. وهو الأمر الذي يمكن أن تستبطنه أعمال غرضها قراءة الحكايات من وجهات نظر نقدية في السرد. ورأينا هنا الاقتصار فقط لسبب منهجي بحت على النظر إلى المرويات من حيث عجزها عن التأريخ للعلم وتطوره دون الإسهاب في دلالات المروي.

(66) قاربنا في عمل آخر قيد النشر حكايات نشأة علم النحو. وهناك تفصيلات أوسع مما هنا عن أن أسئلة النشأة كلها لا يمكن أن تجيب عنها الحكاية وحدها إجابة علمية يعتمد عليها منهجياً؛ لأن القصة التي تُحكى عن أية نشأة إنما تحكى بعد زمن النشأة لا في الزمن نفسه، ولا تحكى إلا بشروط زمن إنتاج الحكاية لا بشروط زمن النشأة، ولذلك لا بد أن تكون «أسطورة» - بالمعنى المفهومي للكلمة - بالضرورة. وفي حكايات وضع النحو أدلة على بعد المرويات والأخبار الواردة فيه عن أن تمثل شيئاً من تاريخه. ومن بين أهم الأدلة اصطباغ حكاية وضع النحو بالغاية منه، وهي صيانة اللسان من اللحن. وهي بهذه الصبغة تؤسس لمفهوم النحو مثلما أسس لها المفهوم نفسه، على غرار كثير مما في التراث العربي من حكايات نشأة شبيهة بحكايات وضع علم النحو و يمكن أن نسميها جميعاً بـ «الحكايات المؤسِّسَة»، تسهم في بلورة التصورات عن المفاهيم التي تصف هذه الحكايات نشأتها عند متلقي الحكاية، بحيث لا يذهب متلقي الحكاية إلى تعديل فهمه أو تصوراته عن هذه المفاهيم بسبب تثبيت الحكاية للمفهوم على صورة ما معيَّنة. هذا مع أنه ما أملى الحكاية على حالها المحكية هي بها إلا فهمٌ ما لصورة المفهوم قام في ذهن الحاكي؛ فهي إذاً مؤسِّسة ومؤسَّسة في آن معاً. وقد قاربنا أيضاً ظاهرة «الحكاية المؤسِّسَة» في التراث جريدة الرياض، - الحكاية المؤسسة، محمد ربيع الغامدي، العدد 13271، 7 رمضان 1425هـ، والعدد 13278، 14 رمضان 1425هـ.

(67) ضيف، شوقي - **المدارس النحوية**، القاهرة : دار المعارف، ط3، ص16.

(68) المدارس النحوية، ص16. وينظر الدراسات اللغوية عند العرب، ص64.

(69) ينظر في هذا الاتجاه - على سبيل المثال لا الحصر - ربط محمد عابد الجابري بين مقولات في الثقافة اليونانية تجلت في فلسفتها لا يقابلها مقولات مشابهة في الثقافة العربية ، والعكس ، كعدم وجود الإضافة والملكية عند العرب لاعتقادهم بأن المالك هو الله ، وإضافة الملكية إلى غيره إنما هي مجاز . وكذا عدم وجود مقولة المصدر عند اليونان في مقابل وجودها عند العرب ؛ لأن العرب لا يمتنع عندهم تصور وجود الزمان منفصلاً عن الفعل ؛ إذ المصدر هو الفعل من غير زمن ، في حين لا يتصور اليونان فعلاً بلا زمن . الجابري ، محمد عابد - **التراث والحداثة** ، ط1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، سنة 1997م ص78 . وينظر أيضاً ربط عبدالله العروي بين مفاهيم نحوية و كالاسم والفعل وتصورات السلف للكون والإنسان . (**مفهوم العقل** ، ص359 . وكذا ربط أبو زيد ، نصر حامد - **إشكاليات القراءة وآليات التأويل** ، ط3 ، المركز الثقافي العربي ، سنة 1994م ، ص195 ، 200 . ثم ينبغي أن نتذكر أيضاً منظومة الأعمال العلمية التي تصور اختلاف الثقافات في طرق التفكير والوصول إلى الحقائق ، فضلاً عن المؤلفات الغزيرة التي تدور في فلك «فرضية النسبية» المشهورة ، ينظر في تفصيل هذه الفروق والاختلافات من وجهات أخرى مختلفة مثلاً : نيسبت ، ريتشارد . **جغرافية الفكر (كيف يفكر الغربيون والآسيويون على نحو مختلف ولماذا؟)** ، ترجمة : شوقي جلال ، كتاب **عالم المعرفة** ، عدد فبراير ، 2005م .

❊ ❊ ❊